الإمام الشافعى

- فقهه فى مصر هو الفقه المعتمد.
- حياته ومحنته مع هارون الرشيد.
- عندما اعتدى عليه بعض السفهاء فى جامع عمرو بن العاص.

الإمام الشافعى

ولد محمد بن إدريس الشافعى فى غزة سنة ١٥٠ هـ، وهى نفس السنة التى مات فيها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وعندما مات والده فى غزة، حملته أمه لتعود به إلى مكة تحتفظ بحقه فى بيت المال. وحتى يحفظ القرآن الكريم بها ويتعلم على يد علمائها فى بيت الله الحرام.

والإمام الشافعى يلتقى بالنبى عليه الصلاة والسلام فى الجد التاسع للنبى فهو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف بن قصى.

حفظ الشافعى القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وجوّده على يد مقرئ مكة إسماعيل بن قسطنطين ، وجوده وهو فى الثانية عشرة من عمره، حتى أنه كان يقرأ القرآن الكريم فى هذه السن فى بيت الله الحرام وكان الناس يبكون عند سماعهم صوته لما فيه من عذوبة وشجن، وتعلم على يد كبار رجال عصره، ودفعته أمه إلى قبيلة هذيل، حتى يتعلم العربية ، ويتربى تربية بدنية سليمة فى جو الصحراء ، وعاش هناك قرابة سبعة عشر عاماً كما يقول بعض الرواة، وعاد منها وقد حفظ الكثير من التراث الشعرى كما تعلم الفروسية، وكان الشافعى فارع الطول ضامر الجسم، وقد تزوج من حميدة حفيدة عثمان بن عفان، وأنجب منها محمداً. . وأنجب زينب وفاطمة، كما أنجب فى آخر أيامه (أبا الحسن) من زوجة أخرى مات فى طفولته.

وكان الشافعى يقول وهو يتحدث عن رحلة عمره:

- مالك معلمى وأستاذى ، منه تعلمت ، وما من أحد آمن على من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى.

ومن الأمور التى لم ينسها الإمام هو ذهابه إلى اليمن ، وكان سبب ذهابه إليها أن والى اليمن عندما ذهب إلى مكة طلب منه بعض القرشيين أن يستعين بالإمام

الشافعى ، ووافق الوالى على ذلك . . وفى اليمن ظهرت قدرة الإمام الشافعى على فض الخصومات والنزاعات بين الناس، وربما جعل ذلك يوغر بعض الناس عليه، فما كان من أحد قواد الرشيد، أن أرسل إلى الخليفة تقريراً يتحدث فيه عن الإمام الشافعى؛ وأنه يؤيد العلويين، وبالتالى فهو خطر على الخلافة العباسية ، ومما قاله فى رسالته لأمير المؤمنين :

« . . . ان بينهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه» .

وما كان من الرشيد إلا أن أمر بإحضار هؤلاء العلويين المتهمين وبينهم الإمام الشافعى إلى (الرقة) حيث كان يوجد الخليفة الرشيد . . وعندما حضروا أمام الرشيد أمر بقتل تسعة منهم . . !

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين من العمر، عندما واجه هذه المحنة . . وقد واجهها بقلب ثابت، وعقل حاضر وشهد هذه المحاكمة محمد بن حسن الشيبانى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

وتحدث الإمام الشافعى مدافعاً عن نفسه ، فنفى أنه علوى . . بل أنه أقرب إلى الخليفة لأن جده عبدالمطلب وهاشم جد الرشيد أخوان . . وأن له حظاً من العلم والفقه وقال أن القاضى يعرف ذلك .

وعندما نظر الرشيد إلى القاضى . . أيد القاضى أقوال الشافعى، وشهد أن ما يقوله هو كما يقول .

وظهرت براءة الإمام الشافعى، وأمر له الرشيد بعطاء قدره خمسون ألفا وخرج الإمام من هذه المحنة ليتفرغ للعلم وليبزغ نجمه فى مجال الفقه، ويصبح ثالث الأئمة الأربعة الكبار .

كان الإمام شديد الورع . . شديد الإيمان باللّه ، لا يخاف من شىء لأنه يعلم أن الله ناصره ومؤازره .

يروى أحمد بن خلاد :

قال لى رجل من أولاد الفضل بن الربيع :

- بعث إلىَّ هارون الرشيد فى ساعة لم تكن العادة أن آتى فى مثلها ولا أُدعى، فأسرعت إلى أن وقفت بين يديه فقال لى وهو فى غاية الحنق:

- يا فضل.

- لبيك يا أمير المؤمنين.

- ما فعل الحجازى (يقصد الشافعى)؟

- هو بالباب يا أمير المؤمنين.

- أدخله.

- فانطلقت وقلت له : أدخل.

- فقام وهو يحرك شفتيه.

- فلما دخلنا عليه قام له الرشيد.

وأقبل إليه يمشى ثم قال له:

- لم تر من حقنا على نفسك أن تزورنا حتى بعثنا إليك ، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم.

- قال: لا إرب لى فيها يا أمير المؤمنين!

فقال له : بالقرابة التى بينى وبينك إلا ما أخذتها . . أحملها معه يا فضل.

فلما خرجنا وسكن عنه الرعب قلت له:

- رأيتك تحرك شفتيك بشىء . . فما الذى قلت؟

قال:

- حدثنى مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب على قريش فقال:

«اللهم إنى أعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك . . من كل آفة وعاهة . . ومن كل طارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير ، يا رحمن ، اللهم أنت ملاذى فيك ألوذ، وأنت عياذى فيك أعوذ ، وأنت غياثى فيك أغوث يا من ذلت لك كل رقاب الجبابرة ، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أعوذ بك من خزيك، ومن كشف سترك، ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك.

أنا فى كنفك ليلى ونهارى، ونومى وقرارى، وظعنى وأسفارى. . ذكرك شعارى، وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت ، تعظيماً لاسمك، تكريماً لسبحات وجهك. . أجرنى من خزيك ومن شر عقابك. . . واضرب على سرادقات حفظك، وادخلنى فى عنايتك . . وعد على بخير منك يا أرحم الراحمين».

ومرت المحنة.

وعاش الإمام وهو يصر على أن تكون حياته للعلم والفقه والعبادة.

لقد أقام الإمام فى بغداد سنتين منذ أن قدم إليها سنة ١٩٥ هـ، ثم رجع إلى مكة، وعاد إلى بغداد مرة أخرى ١٩٨ هـ حيث أقام عدة شهور قرر بعدها الرحيل إلى مصر عام ١٩٩ هـ . . وظل بها يعقد الحلقات فى مسجد عمرو بن العاص، ويصحح أصول مذهبه الجديد ، إلى أن غادر دنيانا سنة ٢٠٤ هـ، فى آخر ليلة من شهر رجب، بعد أن ترك تراثاً خالداً قال عنه تلميذه الإمام أحمد بن حنبل:

« ما مس أحد محبرة ولا قلما إلا والشافعى فى عنقه منه».

عاش الرجل فى مصر . . وقرأ فقه الإمام الليث بن سعد وشاهد الحياة فى مصر، وأن الحياة بها تختلف عن الحياة فى الحجاز وغيرها من البلاد التى زارها فبلور مذهبه الجديد، واعتبر أن هذا المذهب الذى أعده فى مصر هو المعتمد. . فهو كما يقول أحمد أمين فى أول أمره يعد نفسه تلميذا لمالك ومتبعاً لمذهبه وتعاليمه وأحد رجال مدرسته. ومازال كذلك إلى سنة ١٩٥ هـ حيث قدم بغداد قدمته الثانية. فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو إليه، والظاهر أن أقوى ما أثر فيه اتصاله فى قدمته الأولى بأصحاب أبى حنيفة، استفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة أهل

العراق. فقد رأى من غير شك أن طريقتهم لا يحسن أخذها كلها، ولا تركها كلها.. فعندهم القياس وهو منهج صحيح ، ولكنه فى نظره ليس على إطلاقه بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة حتى ما كان منها خبر أحاد.. وعندهم طريقة التفريغ، وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها، وهى طريقة جيدة، وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، وإلحاق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات ، والمناظرة فى ذلك ، وتأليف الحجج، وقد رأى ذلك حسنا ، ورأى نفسه فى استدلال جيد للدخول فى هذا الباب والتفوق فيه ، فاقتبس من ذلك أحسنه، وأضافه إلى ثروته الحجازية من اللغة والأدب أولا، والحديث وإجماع أهل المدينة ، وطريقة الحجازيين فى الاستنباط .. هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعى .. وألف بينهما بشخصيته ، فأخرج مذهباً جديداً دعا إليه فى العراق سنة ١٩٥ هـ ، وتبعه عليه أصحابه البغداديون مثل أبى على الحسين على الكرابيسى وكان من مشاهير علماء العراق، وله مصنفات كثيرة (مات سنة ٢٥٦هـ) ومثل أبى ثور الكلبى. وقد صحب الشافعى فى بغداد وأخذ عنه، وألف فى مسائل الاختلاف بين مالك والشافعى وكان أميل إلى الشافعى فى كتبه.

وكأبى على الزعفرانى كان يقرأ كتب الشافعى التى ألفها قبل قدومه إلى مصر، ولكن يبدو أن الشافعى لم يجد لمذهبه فى العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفيين له، ولما لهم من جاه وسلطان وقوة فتحول إلى مصر.

قال الزعفرانى : لما أراد الشافعى الخروج إلى مصر أنشد لنفسه.

أخى أرى نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامة والفقر

فوالله لا أدرى أللفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى قبرى؟

قال الزعفرانى:

فوالله لقد سيق إليهما جميعاً.

والشافعى يوضح منهجه بقوله:

- الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد منه فهو سنة.

والإجماع أكبر من الخبر المفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احتمل معانى فما أشبه منها ظاهره أولاه به. وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها اسناداً أولاها، وليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للأصل لم وكيف؟ وإنما يقال للفرع لم، فإذا صح قياسه على الأصح صح وقامت به الحجة.

لقد كان الإمام الشافعى فقيهاً عظيماً، وعقلية منظمة، أوتى من الذكاء وكثرة القراءة والتأمل، وفهمه للقرآن الكريم والسنة المطهرة ، وإطلاعه على مذهب الإمام مالك والإمام أبى حنيفة، ورؤيته العميقة للأمور ما جعل مذهبه ينتشر ويذاع فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى، وقد خفت هذا المذهب فى مصر عندما حكم الفاطميون مصر، ثم ذاع من جديد بعد أن زالت دولتهم ، وحكم مصر صلاح الدين الأيوبى، حيث انتشر مذهب الشافعى من جديد فى مصر والشام والعراق، واشتهر من فقهاء الشافعية محيى الدين النووى، وابن دقيق العيد، وتقى الدين السبكى والسراج البلقينى وغيرهم.

والإمام الشافعى هو الذى تحدث عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال:

«كان الشافعى كالشمس للدنيا، والعافية للناس وليس عنه عوض».

والإمام الشافعى هو القائل :

«من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق».

«من حفظ القرآن نبل قدره ، ومن تفقه عظمت قيمته ، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه القلم».

وكان الإمام الشافعى شاعراً يتسم بالشفافية والعمق ، وكان يشعر بنفسه ويؤمن بأنه شاعر كبير . . فهو القائل :

ولولا أن الشعر بالعلماء يزرى.

لكنت اليوم أشعر من لبيد.

وهو يقصد أن الشعر فيه الكثير من الخيال، بينما العلم يعتمد على الموضوعية والواقع، وكان يقول:

- لا يكاد يجود الشعر فيه الكثير من الخيال ، بينما العلم يعتمد على الموضوعية والواقع ، وكان يقول :

ولا يكاد يجود خط القرشى لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى:

﴿ . . وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ . . ﴿٤٨﴾ ﴾[العنكبوت].

ومن أجمل ما كتبه الشافعى قوله:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت الرجا منى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته

بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجود وتعفو منَّة وتكرما

فلولاك لم يصمد لإبليس عابد

فكيف وقد أغوى صفيك أدما

كانت الأيام التى عاشها الإمام فى مصر حبيبة إلى نفسه ، لولا بعض التصرفات الغبية من بعض السفهاء الذين كانوا يهاجمونه ، وكانوا من أتباع الإمام مالك ،

ورغم أن الشافعى شديد الإعجاب بأستاذه مالك ، وقد أُثمر اجتهاده عن هذا المذهب الشافعى ، وهو كما قال عنه الرازى :

«فإن الناس كانوا قبله يتكلمون فى مسائل أصول الفقه يستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لديهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى - رحمه الله - علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانونا كلياً يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطوطا ليس إلى علم العقل» .

كان الإمام الشافعى يعانى من آلام (البواسير) وكان كثيراً ما يعانى من نزف الدماء منها، وفى أحد المرات التى كان يجلس فيها إلى الدرس بالمسجد ، انتهز بعض الحمقى خروج الناس ووجود الإمام وحده بالمسجد وانهالوا عليه بالعصى، مما جعله يعانى آلام هذا الضرب من هؤلاء السفهاء ، ومن المرض ومات الإمام الشافعى ليلة الخميس بعد المغرب فى آخر ليلة من شهر رجب سنة ٢٠٤ هـ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين وكانت وفاته عند عبدالله بن الحكم، وقبل وفاته أرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء ، وكان كلما ألم به المرض يسألها الدعاء ولكنها فى هذه المرة قالت لمن أرسله :

«أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إليه » .

ولما مات وحملوا جنازته إلى السيدة نفسية رضى الله عنها . . صلت عليه صلاة الجنازة وقالت رحم الله الشافعى . . أنه كان يحسن الوضوء وهى تقصد أن الوضوء أصل العبادات .

ولقد دفن الإمام يوم الجمعة . . أى فى اليوم التالى لوفاته .

ويروى الرواة ممن أرخوا لسيرة الإمام الشافعى ، أنه بعد أيام من رحيله جاء أحد الأعراب إلى الحلقة التى كان يعظ فيها الناس ولم يجده فتساءل :

- أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟

قالوا : توفى إلى رحمة الله.

بكى الأعرابى وقال:

- رحمه الله وغفر له ، كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويوسع بالرأى أبواباً منسدة.

لقد رحل الإمام الشافعى ، وبقى فقهه وعلمه وأشعاره . . نور هداية للناس فى كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.